الثقافة العربية الجديدة
ودورها في تجنيب سلبيات الهزيمة

عبد الكريم غلاّب

ليست الهزيمة الأولى تلك التي تعرضت لها الأمة العربية في لبنان. ولكنها سلسلة من الهزائم. ولم تكن أولاها سنة 1948. وانما بدأت الهزائم قبل ذلك منذ التصور العربي للصراع بين العربية والصهيونية. منذ وعد بلفور على الأخص ــ وقد بدأ الوعي العربي يستيقظ ــ كان التصور بدائياً. ومن هذه البدائية بدأت بدأت سلسلة الهزائم.

كان الوطن العربي مستعمراً سياسياً وعسكرياً، ولكنه أكثر من ذلك وأخطر كان مستلباً فكرياً وثقافياً. ولم يكن المثقفون العرب ــ على الأخص ــ ولا السياسيون يعرفون شيئاً عن الفكرة الصهيونية، ولا عن المخطط الاستعماري لاحلال الجسم الغريب وسط الامة العربية والعالم الاسلامي، لا ليكون الركيزة الدائمة للاستعمار في منطقة استراتيجية خطيرة ومهمة فحسب، ولكن كذلك ليقف في وجه كل تكتل وحدة بين افريقيا العربية والمسلمة وآسيا العربية والمسلمة قد يخلف الخلافة المحتضرة.

كان هذا هو الهدف من الاقتراح الذي خرجت به الندوة الانجليزية التي أوحت بتنظيمها حكومة لندن، لتحديد مستقبل هذه المنطقة، التي كانت تهم انجلترا بمقدار ما يهمها مستقبل الامبراطورية البريطانية. خرجت الندوة باقتراح إنشاء جسم غريب يعتمد على الصهيونية كحركة عنصرية تستغل الدين الذي يمكن أن يواجه الديانتين السماويتين الغالبتين في الوطن العربي والاسلامي بالشرق الأوسط وافريقيا.

المثقفون العرب كانوا في غيبة عما يدبر للأمة العربية والاسلامية. ويوم بدأوا يشعرون ــ الفلسطينيون منهم على الأخص ــ بخطر الهجرة اليهودية المنظمة والتي يدعمها الاستعمار أخذوا الموضوع من جانبه الضيق: جالية تتكاثر في وسط الشعب العربي الفلسطيني الذي يملأ أرض فلسطين.

الوعي الثقافي بخطورة الحملة الصهيونية كان منعدماً.

وتلك هي الهزيمة الأولى في سلسلة الهزائم العربية.

وربما كانت الهزيمة الثانية هي الاستلاب الوطني ازاء الغزو الاستعماري.

لا أحتاج ان أذكر ان المسؤ ولين السياسيين كانوا ــ الى حدود الخمسينات ــ لعبة، ــ أغلبيتهم ــ في يد الاستعمار. بل كانت لندن أو باريس هي التي تنصب الحاكمين وتختار الوزراء و«تنتخب» أعضاء المجالس النيابية. واذا كانت مسؤ ولية هؤ لاء في الهزيمة محدودة لأنهم كانوا في غير مستوى المسؤ ولية، فان المثقفين العرب كانوا في غفلة عن الشعور الشمولي بالمسؤ ولية. ولم يكونوا يقومون بأي دور في التوعية الفكرية. بل لم يكن لهم أفق فكري وثقافي. كانوا يجترّون الماضي، ويعيشون في حاضر مضبّب، أكثرهم علماً وأقواهم عارضة يكتفي بترديد ما قد يقرأ من أدب أو تاريخ في لغته أو في غير لغته اذا ما تعلم لغة أخرى.

دور سلبي للمثقفين العرب كان هزيمة أخرى.

وبدأت الهزائم «السلاحية» تحيق بالشعب الفلسطيني ــ منذ الثلاثينات ــ وهو يقاوم وحده الاستعمار الانجليزي «والهجرة» اليهودية. ولم يكن الوطن العربي يضع هذه «الهجرة» موضعها الحقيقي. ولذلك كان شعب فلسطين يخوض المعارك التظاهرية والثورية أحياناً. وتخمد القوات الانجليزية هذه الثورات والتظاهرات ليعدها التاريخ في أمجاد شعب فلسطين... في الوقت الذي كانت فيه الصهيونية العالمية تنظم نفسها ــ رغم النازية والحرب ــ لاكتساح فلسطين...

كان المثقفون العرب في غفلة عن ذلك. وهذه هزيمة أخرى.

في الحرب العربية ــ الصهيونية الأولى سنة 1948 كان السياسيون وأصحاب القرار منهزمين نفسياً. كان بعضهم يعتمد على الضباط الانجليز، وبعضهم يعتمد على القرار الانجليزي، وبعضهم يساهم في الاتجار بالاسلحة الفاسدة ضد جيش بلاده... وكانت الهزيمة المدبرة الموقوتة.

أخطر من هزيمة السياسيين هزيمة المثقفين الذين كانوا في غيبة عن خطورة الموضوع: بعضهم كان يعتبر الحماس للحرب مغامرة في غير ميدان، بعضهم كان يعتبر الموضوع يهم فلسطين «ومالنا ولفلسطين...»! وأغلبهم لم يكن يشعر حتى واقعياً و«حدثياً» بخطر الصهيونية ــ التي تدعم نفسها هذه المرة «بالشعب» والأرض والحكم والسلاح ــ على الوطن العربي جميعه، وفي مقدمته البلاد المجاورة لفلسطين.

كانت الهزيمة العسكرية. ويمكن ان نقول انها كانت محتملة نظراً للظروف السياسية والعسكرية التي كانت تحيط بالمسؤولين وصانعي القرار. ولكن أخطر منها هزيمة المثقفين الذين انصرفوا بوعيهم عن عمق الهزيمة وآفاقها المستقبلية. وكان أكثرهم شجاعة هو الذي يكتب «بكائية» أو مرثية ــ على غرار مراثي الأندلس ــ وان كانت بكائية منتصف القرن العشرين تستغل فنون القول المختلفة: المقال والقصيدة والقصة والمسرحية.

وتوالت الهزائم 56-67-73-82 والمثقف العربي في الموقف نفسه.

ويوم يجمع أدب الهزيمة ــ على الأقل في ثلث القرن الماضي ــ سيكشف عن هوة خطيرة في الفكر العربي والثقافة العربية مظهرها الاساسي الهجو والمدح والرثاء...

أعتقد أن شعوراً ضميرياً ضامراً كان يراود من حين لآخر المثقفين العرب يوحي لهم أن الثقافة العربية ــ والمثقف الغربي ــ في غير مستوى الهزيمة. ولا رضـــاء

هذا الشعور الضامر كانت الثقافة العربية تصطنع معارك «ضون كيشوتية» بين الرجعيين والتقدميين، بين التقليديين والتحديثيين، بين اليساريين واليمنيين، بين الاشتراكيين والليبراليين... «قطاع» مهم صرف فيه المثقفون طاقاتهم «الابداعية» وأفرغوا كل حماسهم الفكري ليزيدوا الساحة الثقافية تمزقاً، ولتطغى الانانية، بل الانعزالية الفكرية ولينفصل المثقفون عن شعوبهم وهم يعانون معارك السويس أو سيناء والضفة وغزة والجولان أو بيروت والجنوب وصبرا وشاتيلا...

ما هي الهزة التي أحدثتها الهزائم المختلفة في الفكر العربي؟ في المثقف العربي؟ ما هو المنعرج الذي سلكته الثقافة العربية بعد النكبة، او بعد السويس او بعد بيروت، او بعد صبرا وشاتيلا...؟

لعلي قد أجبت!

ولكن السؤال الذي تطرحه مجلة «الآداب» يتعلق بالمستقبل. وفي نظري: لا ايجابيات مستقبل دون رصد سلبيات الماضي... المراجعة واعادة التقويم تتطلب التعرف على معالم الانحراف لمسيرة نضالية عـربية ضـد الاستعمار والصهيـونية والـرجعيـة والتخلف.

لذلك:

الثقافة العربية الجديدة في حاجة الى تحديد مفهومها اذا اردنا أن نعتمد عليها في الاسهام في الخروج من الهزيمة.

أعتقد اننا جربنا ثقافة الكلمة . وكانت النتيجة هي ما رأينا .

ويجب أن ندرك ، فنحول الاتجاه الى ثقافة العقل والعلم ، لتكون هذه الثقافة ذات مسؤ ولية للاسهام في الخروج من الهزيمة .

من بين العناصر الأساسية للهزيمة أننا ما زلنا نعتمد على خصومنا وأعدائنا في كل ماله صلة بالعلم : من استخراج قطرة نفط حتى الصاروخ ، ومن تحليل لواقع اقتصادنا واقتراح الحلول لجوعنا ــ ونحن الأغنياء ــ الى تخطيط مستقبلنا الاقتصادي . ننشىء جامعات جديدة كل سنة بالوطن العربي ونبدأها بكليات الآداب والحقوق . وهي كليات تصنع ثقافة الكلمة اكثر مما تصنع ثقافة العلم والعقل .

وثقافة الكلمة تقليد عربي اذا صح ان يكون مجزياً في عصر الحرية والثراء الفكري ، فليس بمجز في عصر الصراع من أجل البقاء مع الذين يبيدوننا كجنس بالقنابل العنقودية والسلاح الكيماوي . . .

من المؤسف ان ثقافة الكلمة انحرفت عن مسؤ وليتها فأصبحت مضللة أكثر منها موجهة بالتوعية والخلق والابداع . الكلمة كانت في خدمة سياسة التجهيل والتضليل . وكانت أمتنا العربية تعيش على دقات طبول الكلمة التي لا تحمل الا إلهاب العواطف بالزيف وتضبيب العقل بالجهل . معظم أدبنا ما بين هزيمتي 48 و 81كان يخاطب الاحساسيس المريضة بالكلمات الرنانة المستخرجة من أعماق القواميس المحنطة . وكان المثقفون يدقون الطبل ويستمعون لصداه ، فيهزهم ــ أنفسهم ــ الصدى ، ويزيد حماسهم لدقات جديدة . . . وهكذا دخلنا المعارك غير المتكافئة بين جيوش العلم وجيوش الكلمة ، بين حماس المقاتل الذي مُلىء عقله قبل أن يبدأ المعركة ، وحماس المقاتل الذي شحنت عاطفته ، وسقطت طائرة الكلمة في مواجهة طائرة العلم . . .

الشعب نفسه أصبح مثقفاً عن طريق الاذاعة وما تشحن به عاطفته . ومن المؤسف أن بعض الذين كانوا في مناصب المسؤ ولية واصدار القرار كان حماس الاذاعة هو كل مبلغهم من العلم .

تعود الهزيمة ــ والهزائم ــ اذن الى الدور السلبي المضلل لثقافة الكلمة غير المسؤ ولة .

وكانت أمتنا هي الضحية .

نحن اذن مدعوون أن نعيد النظر في مفهوم الثقافة العربية لنجعلها جديدة لا تعتمد على الكلمة بقدر ما تعتمد على العقل والعلم .

ذلك ان الثقافة دخلت في العصر الحديث ميدان المعركة لا بين الأفكار فحسب ، ولكن بين الشعوب والأجناس والدول . والذين يحاربوننا كأمة عربية لا ينظمون قصيدة هجو ــ كما يفعل بعض منا ــ ولكن يجتمعون في مخبر بحث لاكتشاف أخطر سلاح يمكن أن يفرغ مدينة من سكانها في لحظات .

تحول جذري في مفهوم الثقافة هو ، اذن ، العمل الأولي المطلوب من الوطن العربي ، اذا أردناها ثقافة جديدة مسايرة للعصر ، فعالة في بناء مستقبل الوطن العربي .

التوجيه الثقافي مسؤ ولية السياسيين .

قد يكون .

ولكنه مسؤ ولية المثقفين في واجهتين :

ــ التوعية بالثقافة العلمية بين جماهير الشباب ، وبأهمية التوجيه العلمي للثقافة بين صانعي القرار أنفسهم .

ــ تجميع المثقفين علمياً وتجنيدهم لخدمة المعركة التي تخوضها بلادنا ضد عمليات السحق والإبادة التي يواجهنا بها أعداء الأمة العربية .

ما تزال الثقافة ــ ولنقل التعليم الذي يفضي الى الثقافة ــ مرتبطاً بالعمل وكسب القوت . والواقع أن المشرفين على التربية الوطنية في الوطن العربي يضعون ــ فيما أحسب ــ هذا الهدف أمام مذهبهم وبرامجهم ومخططاتهم . يسعون الى ربط التعليم بالعمل تجنباً للبطالة بين المتعلمين ، ووضعاً للتعليم في خدمة التنمية الاقتصادية .

اتجاه سليم قد ينقذ الوطن العربي من جانب من الفوضى ، وقد يسهم في التنمية وانقاذ التعليم ــ ولا

أقول المتعلمين ــ من أن يكون طريقاً الى البطالة، أخطر بطالة يمكن أن تواجهها شعوب في طريق النمو.

ولكن لا يكفي في توجيه التعليم أن يكون مخططاً للاسهام في التنمية وتلافي البطالة. فأعداء الأمة العربية أعمق من التخلف الاقتصادي وبطالة المتعلمين. العدو الأول الآن هو استخدام العلم وسيلة لابادة الجنس العربي، والتمكين للتوسع الصهيوني في الوطن العربي. ولهذا كانت الواجهة الأولى (التوعية بالثقافة العلمية) أهم مسؤ ولية يجب أن يضطلع بها المثقفون بين شباب الجامعات وصانعي القرار من المسؤ ولين.

والوطن العربي يتوفر على مجموعة من العلماء ذوي خبرة عالية وعالمية. بعضهم في الجامعات العلمية على امتداد هذا الوطن. وبعضهم لا يجدون الممكنات العلمية لاستغلال خبرتهم في استمرار البحث. وبعضهم
يئس من أن يفيد بخبرته في وطنه فهاجر. وتقدم لنا دوائر
الرصد احصاءات مريعة عن العلماء العرب الذين يعملون في الجامعات ومراكز البحث في الدول الأوروبية والأميركية. لعلهم من البطالة في وطنهم فروا. ولعل كرامة العلم أهينت فيهم فهاجروا الى حيث يجد العالم كرامته.

استقطاب هؤلاء وأولئك هي المسؤ ولية الثانية التي يجب أن يضطلع بها المثقفون في الوطن العربي. لا يكفي في ذلك التجمع في مؤتمر للعلماء يحددون فيه مسؤ وليـاتهم ازاء الثقافة الجديدة في الوطن العربي، وازاء ابتكار النضال بالعلم ضد الصهيونية والاستعمار اللذين يحاربانا بالعلم. الأمر أخطر من مؤتمر عارض يجتمع ليصدر عنه تصور أو توصيات، فهم مدعوون الى أن يضعوا علمهم وخبرتهم في خدمة الأجيال أولا، وفي خدمة دولهم لتطوير الأجهزة الدفاعية ضد عملية الابادة، ابادة الجنس التي يمارسها الاستعمار والصهيونية على الوطن العربي.

اقترح ان تؤسس «جامعة» على مستوى الوطن العربي باشراف منظمة التربية والثقافة والعلوم مثلا لتكون جامعة للدراسات العليا والبحث العلمي تستقطب آلاف العلماء العرب الذين هاجروا لأسباب سياسية أو مادية ويقيمون في دول أوروبية وأميركية يبيعون خبرتهم بأبخس الاسعار. ومن يدري فلعل خبرتهم تعود الى اسرائيل بطريق غير مباشر فتكون ضداً على سلامة وطنهم العربي ومواطنيهم العرب.

من شأن هذه الجامعة المقترحة أن تركز على الأبحاث العلمية التي تشع ثقافة علمية متطورة تسهم في تطور الوطن العربي اقتصادياً وعسكرياً وعلمياً حتى يستطيع أن يصمد للدفاع عن نفسه ضد أية هزيمة محتملة. وما يحتمل له الا الهزائم المتوالية ما دامت اسرائيل جسماً سرطانياً مزروعاً في قلبه مدعوماً بالامبريالية الدولية والاستعمار الجديد.

الجامعة العلمية المقترحة هي التي ستكون ملتقى العلماء مهما يكن الاقليم العربي الذي ينتمون اليه، وهي التي ستبلور الخبرة العربية الموزعة توزع الاقطار العربية، والممزقة تمزق الاقاليم العربية، والمنفية خارج الوطن العربي، لاجئة بعلمها من وطن لا يقدر العلم لأنه مخدر بثقافة الكلمة.

والثقافة العربية الجديدة يجب ان تكون ذات مسؤ ولية لتفرض نفسها على مختلف الأصعدة العربية. فقد كانت الثقافة ــ والمثقفون ــ تعيش في عزلة عن الحياة وعن مركز المسؤ ولية. البرج العاجي وما هو بعاج... ! ــ كان هو الأمل. المثقفون يعتبرون أنفسهم نخبة مترفعة ترشد وتنتقد وتمدح وتهجو وتبكي عند الضياع... وليست هذه هي مسؤ ولية ثقافة ومثقفين يعيشون في عصر الهزائم.

مسؤ ولية الفعل وليست مسؤ ولية الكلمة:
ذلك هو شعار الثقافة العربية العربية الجديدة.

ومعنى هذا أن المثقفين يجب أن يفرضوا أنفسهم وفكرهم في الساحة العربية، ونكرر لا من خلال الشعارات ودق الطبول. ولكن من خلال التنظيمات السياسية والنقابية التي توجه الرأي العام وتفرض أفكارها على الأنظمة الحاكمة.

لم يكن هناك تعايش بين المثقفين وأنظمة الحكم منذ يقظة الوطن العربي، ولا نستثني عصر الهزائم. قد تكون لذلك أسبابه الموضوعية، وفي مقدمتها: ثقافة الكلام. وقد تعود المسؤولية في هذا الطلاق البائن الى هذا الفريق وذاك. ولكنها مسؤولية مشتركة...

مهما يكن فليس مهماً البحث في الماضي، ولكن المهم هو بناء الجسور بين المثقفين العرب والمسؤولين حتى يمكن أن تكون الثقافة الجديدة مسهمة في الخروج من الهزيمة وبناء وطن عربي جديد.

أحب أن ألاحظ في نهاية هذه الفتوى أن الجيل العربي القادم سيكون بعيداً عن اليأس والاستسلام، ذلك ان الهزائم المتوالية التي شهدتها الأجيال المتساكنة في الوطن العربي لم تضع شعوب هذا الوطن على عتبة الاستسلام. ما تزال فيها — رغم خيبات الأمل المريرة — قدرة على المقاومة وعلى البناء. أما الجيل العربي القادم فسيكون قادراً كذلك على الادانة، متخلصاً من كل ظروف اليأس، بعيداً عن كل ما يبعث في روحه الهزيمة واليأس، اذا وضعناه في محيط ثقافي جديد.

والثقافة العلمية الجديدة المشبعة بروح المسؤولية، الشجاعة في مواجهة الانعزالية والتقوقع، كفيلة بترشيد الأجيال ضد كل عوامل اليأس والاستسلام.

الرباط (المغرب)

دار الآداب تقدم

قصة حب عصرية

الدكتور شريف حتاتة